عبد السلام الأسمر حياته ومكانته الصوفية

نرمين محمد سعد محمد

مقدمة

مما لا شك فيه أن التحدث عن التجربة الصوفية لشخصية بعينها يستلزم معرفة معالم تلك الشخصية ، ونشأتها ، ومدى الإسهام الروحي الذي تقدمه هذه النشأة في تشكيل الحياة الروحية لها . وقد آثرت الإطناب في هذا الفصل وكان من الممكن أن يكون مجرد تمهيداً لبقية الفصول وليس فصلاً قائماً بذاته ؛ وذلك لما لمسته من محطات هامة في سيرة الأسمر الذاتية كانت لها عظيم الأثر في تهيئة شخصيته الصوفية المعتدلة شأنه في ذلك شأن جميع شيوخ الطريقة الشاذلية التي ينتسب إليها والتي توصف بأنها من أفضل الطرق على الإطلاق ؛ وذلك لأنها اتسمت بالوسطية في جمعها بين الشريعة والحقيقة ، و قد نظم الإمام ابن عطاء الله في مدحها :

تمسك بحب الشاذلية تلق ما تروم فحقق ذاك منهم وحصِّل
ولا تعدُ عيناك عنهم فإنهم شموس هدى في أعين المتأمل

وإذا كان الانتساب إلى طريقة صوفية بعينها قد يراه البعض أنه من الأمور التي ليست من الأهمية بمكان ؛ إلا أن البعض الآخر قد جعله الأساس المعتبر في تقييم رتبة الصوفي ومعرفة درجته حتى أنه قُدِّم على النسب الطيني على حد تعبيرهم .[1] لذلك كان من الضروري أن أعرض أصول الطريقة الشاذلية ، وكذلك الطريقة العروسية السلامية التي انبثقت منها وهي التي انتسب إليها الأسمر وهذا ما سأتناوله بإذن الله في طيَّات هذا الفصل والذي رتبت مباحثه كما سبق أن وضحت .

أولاً : نبذة تاريخية عن السلالة التي ينتمي إليها الأسمر

[2]ينتمي الشيخ عبد السلام الأسمر إلى سلالة شريفة رجالها أشراف من نسل الحسن السبط ابن الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) . كانت هذه السلالة الشريفة تعيش في المغرب الأقصى في ظل الدولة الإدريسية التي أسسها إدريس الأكبر ؛ و على أثر انهيار هذه الدولة و

مطاردة أفراد البيت الإدريسي و التنكيل بهم ، تفرقت هذه السلسلة في قبائل المغرب . و في أواخر القرن الرابع الهجري حل بإفريقيا و بالتحديد في تونس بعض أفراد هذه السلسلة و هم : عبد الله بن عمران الملقب بنبيل الإدريسي ، و أسرته ، و بعض من أبناء عمومته الذين استقامت لهم الحياة و حظوا بالأمن والاستقرار في كنف أولاد سعيد الذين كانوا آنذاك في غاية العز والمكانة .

و بالقرب من طرابلس و بالتحديد بمدينة الزاوية الغربية اليوم ، حطَّ ركب الحجيج رحاله للراحة و التزود بما يحتاجه . و يبدو أن الزاوية قد راقت لنبيل و أعجبته ، فقرر الإقامة بها هو وآله ؛ حتى يضمن لنفسه و لهم الأمن والاستقرار. و قد كان لموقف نبيل هذا من حلفائه أكبر الأثر في نفوسهم فازدادت حنقاً و غيظا ً، و ما أن تناهى إلى سمعهم استقرار نبيل و آله بالزاوية الغربية ، حتى أخذت غاراتهم تتوالى على مدينة الزاوية بحثاً عن حليفهم الآبق. وحسبُنا أن نشير هنا إلى تلك الغارة الشنعاء التي راح ضحيتها معظم أفراد آل نبيل ، ولم ينجُ منهم سوى حفيديه : خليفة الذي اختبأ في معصرة قديمة للزيتون ــ و هي المسماة في عرف البلد بالفيتورة ــ فكتبت له النجاة ، و من يومها أطلق عليه اسم الفيتوري ، وأخيه يوسف الذي اختبأ في إحدى شجيرات العوسج فكتبت له النجاة أيضاً ، و من يومها أطلق عليه اسم العوسجي .

و مع نهاية الثلث الأول من القرن السادس الهجري الذي تميز باشتداد هجمات البدو على الزاوية الغربية قرر سليمان بن سالم ــ حفيد خليفة الملقب بالفيتوري ــ وقد رزقه الله سبعة من الأولاد أن يبتعد بهم عن هذه المنطقة المتوترة ، فما لبث أن توجه إلى مدينة زليتن التي تبعد عن الزاوية الغربية بنحو مائتي كيلومتراً ، فحط سليمان وأولاده السبعة رحالهم هناك و قرروا الإقامة بها مجاورين قبيلة العوامر التي سرعان ما قلبت لهم ظهر المجن و ناصبتهم العداء . و كان من إرادة الله سبحانه و تعالى أن أخذت هذه القبيلة في التلاشي و الضمور حتى كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً . و أسبغ الله على سليمان و أولاده نعمته ، فأورثهم الأرض و بارك في نسلهم فامتلأت بهم مدينة زليتن ، و ازدانت بسرهم وتقواهم .

ثانياً : نسبه و قبيلته

ينحدر الشيخ عبد السلام الأسمر من قبيلة (المريقات) و بالتحديد من بيت (المجدة) . وقبيلة المريقات هي إحدى القبائل التي تُكوِّن بمجموعها ما يسمى الآن بالفواتير نسبة إلى جدهم سليمان بن سالم بن خليفة الملقب بفيتور.

وقد تميز الفواتير منذ ظهورهم على مسرح الحياة بالاستقامة و التدين و التخلق بالأخلاق الحميدة ؛ مما جعلهم في نظر الكثير من الناس معدن الولاية والبركة . و مما يتناقلوه في شأنهم مقولة علامة المغرب الشيخ (أحمد زروق البرنسي ت 899 هـ) : الفواتير والزاوية يُنبتان الأولياء كما تُنبت الأرض الطيبة الزعفران ، و ذُكر عنه أيضاً أنه ذات يومٍ قال لبعض أصحابه أنه لم يهب أحداً ممن يخالف الشرع مهما كانت رتبته بل يُنكر عليه و يهدِّده حتى يُظهر له امتثالاً عدى الفواتير فهو لم يتكلم فيهم إلا بخير على ما ظهر له من بركاتهم ، وهم قوم ينبغي التأدب معهم حيين أو ميتين .

أما نسبه من جهة أبيه فهو كما ينقله صاحب مُختصر البرموني عن الأصل (فهو) الشيخ الكامل القدوة العمدة الصالح العالم العامل شيخ زمانه و وحيد عصره و أوانه المربي الواصل القطب الغوث المكاشف ذو المقامات العلية و الأحوال السنية و الأفعال المرضية شيخ الطريقة و إمام أهل الحقيقة مولانا الشيخ سيدي (عبد السلام بن سليم) ابن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران الشهير بخليفة ابن محيا بن سليمان بن عمران بن أحمد بن خليفة الملقب بفيتور ابن الشيخ الولي الصالح العابد الزاهد السيد الشريف الحاج عبد الله الشهير بنبيل المقبور بمكة ابن عبد العزيز بن عبد القادر بن عبد الرحيم بن عبد الله بن إدريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) و ابن سيدتنا فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . (نقل) هذا النسب الشيخ بدر الدين ابن نجم الدين في تأليف له في أشراف المغرب .

و كان والده سليم رحمه الله من رجال الله الصالحين صاحب كرامات و إشارات ، و بالرغم من أنه كان أمياً لا يقرأ و لا يكتب ؛ إلا أنه كان يتكلم في معاني الكتاب و السنة كلاماً بليغاً تحير فيه العلماء ، و كان يردُّ الغلط على القارئ إذا سمعه بدَّل أو غيَّر أو زاد أو نقص ، و كان يجلس بالزاوية التي يتلى فيها القرآن الكريم و ينصت لقراءته من أفواه الحفظة فإذا غلط

القارئ يقول له : اسكت يا فلان فإن قراءتك على غير الصواب . فإن قيل له كيف تعلم ذلك ! يقول : " إن القارئ إذا قرأ بإزائي أصير أنظر نوراً متصلاً من فِيهِ إلى عنان السماء فإذا غلط القارئ أو بدَّل أو غيَّر انقطع ذلك النور الخارج منه ". ولا عجب في ذلك فقد كان الشيخ عبد العزيز الدباغ أمياً ومع ذلك يفرق بين القرآن و الحديث القدسي ، و يفرق بين الحديث الصحيح و الموضوع ، وكان له نَفَسٍ عالٍ في تفسير القرآن والأحاديث و ذلك محض فضل من الله و الله ذو الفضل العظيم .[3]

و أما نسبه من جهة أمه فهو عبد السلام ابن السيدة سليمة الدرعية الشهيرة بعيَّادة و المعروفة بصلاحها و عبادتها و تقواها . والدها السيد عبد الرحمن الدرعي النازح من بلاد المغرب و المعروف بصلاحه التقيُّ العارف بالله الولي الكامل ابن عبد الواحد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن علي بن سعد بن محمد بن أبي عبد الله ابن الشيخ المربي الولي المعروف عبد السلام بن مشيش و هو ابن عبد العزيز بن إدريس بن عبد الله الشهير بنبيل بن الحسن المثنى بن سيدنا الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) .

و اشتُهرت السيدة سليمة بعيَّادة لكونها وُلدت في عيد الفطر ، و قد رُوي أنها لما تزايدت ببلاد درعة و كبرت و عَرفت ما فُرض عليها من أمور دينها ، نُودي في سر والدها أن لا يزوجها لأحدٍ من الناس إلا للسيد سليم بأرض طرابلس ، و كان الناس يرغبون في خطبتها عند أبيها و يبذلون له فيها المهر الكثير ، فيقول : مالي وتزويجها لكم ولو بوزنها ياقوتاً وسيظهر زوجها إن شاء الله من طرابلس شريفٌ نسبه من آل محمد (صلى الله عليه وسلم) . فلما أراد الله الجمع بينها و بين السيد سليم حملها أبوها لأرض طرابلس و عندما وصل عوسجة تلقاه سليم ومعه القاضي و الشهود فزوجها له والدها بعقدٍ و صداقٍ و دخل بها سليم للزاوية الغربية وبنى بها هناك .

و كانت أمه رحمة الله عليها فاضلة جليلة حاذقة كيِّسة تصوم من السنة الأيام الكثيرة و تتلوا القرآن. عاشت مائة وعشر سنين ، ولما تُوفيت نادى منادٍ : هلموا إلى الصلاة على المرأة الصالحة الفاضلة السيدة الشريفة الجليلة كثيرة الإحسان عابدة الرحمن الدرعية رحمها الله .

ثالثاً: مولده , نشأته و أثرها في تكوين شخصيته

أما عن مولده فكما تذكر المصادر أنه ولد في تلك الليلة التي اشتهرت بأنها من خير الليالي طول العام بل هي الجوهرة المتلألئة التي تأتي بالفرح والعيد في كل قلب مسلم محب لخير الموجودات محمد (صلى الله عليه وسلم) . في هذه المناسبة العظيمة مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي يُشرق صباحها الوضَّاء الثاني عشر من ربيع الأول الذي يحتفل به العالم الإسلامي في كل بقاع العالم . وُلد عبد السلام و الذي لم تكن ولادته مفاجأة لأمه و أبيه بل كانت تثبيتاً للرؤيا المتكررة لديهم ؛ فقد رآه والده في الرؤيا مرات عديدة و ناجاه و كلمه ، كذلك أمه التي رأته وعرفته قبل ولادته لكثرة زيارته لها في رؤياها فشعرت بأنها أمام أمر و خطب هام و ليس عادي ، و أن مولودها القادم سيكون من الشخصيات التي لها أثر عميق في التاريخ .

خيَّمت مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف على مدينة زليتن التي كانت كلها ساهرة في إحياء تلك الليلة المباركة بالقرآن الكريم و القصائد و التواشيح الدينية ، و الأطفال يسهرون و الفرح يملأ حياتهم ، والنساء مشغولات بإعداد الطعام و الولائم بهذه المناسبة السعيدة ، و رجال القبائل و شبابها و فتيانها قد اجتمعوا كعادتهم حيث تجمعهم أيام الأعياد دائماً ، و المساجد مفتوحة لذكر الله و مظاهر البهجة و السرور قد شملت كل بيت و كل مكان في زليتن و العالم أجمع . و انطلقت الأصوات الجميلة في المآذن تؤذن لصلاة الصبح ، و انطلق صوت المولود السعيد في صباح مولد جده المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الثاني عشر من ربيع الأول 880 من الهجرة ؛ و كانت هذه إشارة واضحة بما تدَّخره الأيام من عناية ربانية لهذا المولود السعيد .

نشأ عبد السلام في أحضان والديه يغمرانه بعطفهما و حنانهما ، و مضت الأيام مصحوبة بالسعادة و الرضا و الإيمان والحب والإخلاص ، و ظلت الابتسامة ترتسم على شفاه العائلة المباركة حتى طرق حياتهم طارق لم يألفوا سماعه من قبل فهمُّوا لاستقبال هذا الطارق.. و إذا هو بيوم معصوب العينين سأل عن ست و عشرين يوم مضت من عمر عبد السلام ، فلما تأكد من انتهاء هذه المدة جاء ليأخذ معه سليم ؛ فكان الطارق ملك الموت ... و سكت الجميع لحظة ثم سألت سليمة زوجها : إلى أين ياسليم ؟! فرد عليها في سكينة و وقار : إلى

ربي العظيم الأعلى. فقالت له: و هل سئمت من رؤية عبد السلام فتتركه ؟ فقال لها : لقد تركت عبد السلام مع ربه في دنياه الجديدة و سوف أسافر لربي لأكون معه بعد انتهاء مأموريتي و هي عبد السلام و هو أمانة عندك يا سليمة فلا تهملي شأناً من شؤونه و الله يتولاكم و هو نعم المولى و نعم النصير .

و انتهت حياة سليم ، و كان وداعه مشحوناً بالآلام من الجميع ؛ فقد ترك ثغرة واسعة في هذا المجتمع الذي إلتف حوله و كانوا عند احتياجهم لأي شئ يبحثون عن سليم و كلهم يعلم خطواته و اتجاهاته ، فلم يتحرك خطوة إلا في قضاء حاجة ، أو إنهاء مسألة ، أو فض مشكلة أو مجلس صلح .

مضت الأيام و احتاج عبد السلام الرضيع إلى أب يتجاوب مع حنان أمه ، فتردد عليه عمه الشيخ أحمد الفيتوري الرجل الصالح التقي الورع . و تكفَّل بكل مطالب عبد السلام فلم يترك حاجة من لوازم الأطفال إلا وحملها إليه في حب وحنان ، و استمر يرعى ولد أخيه و يصطحبه معه في الأماكن التي يتردد عليها ، و بدأ يُعلمه الكلام والمناقشة و الدين و العلم و هو لا يزال طفلاً صغيراً .

و قد كان الشيخ أحمد رجلاً طيب الخلق ، هادئ الطبع ، جمُّ الأدب ، متعلماً يمتاز بالذوق السليم ، و كان أنيقاً في ملبسه ، أنيقاً في ألفاظه ، سمحاً في معاملاته ؛ لذا أحبه الناس وأنسوا مجلسه . و ينطق الشيخ أحمد بالشعر الجميل الذي كان كله في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو في ذكر الله ، و كان يختار من الشعر ما يتعبد به . و كان عبد السلام الطفل يسمعه فنشأ على هذا النهج من الحياة .

و التحق عبد السلام بمدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، فحفظ القرآن و عمره سبع سنوات . و معروف أن بالقرآن كنوز العلوم جميعاً ، و من تمكَّن من حفظ القرآن سهُل عليه كل شئ . فتعلق عبد السلام بالعلم و العلماء ، و شجعه عمه فكان يصطحبه في المجالس و يُلقنه كيف يتكلم مع الرجال و العلماء باحثاً عن الحقيقة و التوحيد و الفقه و الحديث و المنطق ، فذاق مشارب العلم صغيراً .

وفي هذا الجو الروحي نشأ عبد السلام على هذا الدرب القويم . و كان يسأل عمه عن كل ما يدور بخلده و العم يجيب ، حتى تفوق في كل العلوم فكان العم يبحث في المراجع عن إجابة لسؤال عبد السلام . و انطلق الغلام الصغير و عمه يساعده حتى صار في مقدمة العلماء و هو لا يزال صغيراً ، و امتزجت حياة العلم التي عاشها عبد السلام بالعبادة و الذكر و حب الله ورسوله فازدادت نوراً ، و ظهرت عليه أمارات الأولياء و بدأت حياته بما يليق و مكانته الربانية التي وصل إليها.

اشتد تعلق العم بابن أخيه حتى صار يرى منه النور و يجد في رؤيته اليسر والسرور، وأصبح عبد السلام لعمه أسعد رفيق ، وأعز صديق ؛ فهو الملازم له في غدوه و رواحه ، و هو الذي يستشيره في كل أموره بعد أن زالت بينهما أسطورة فروق العمر و أنه طفل أو غلام ؛ فقد كان رأيه صريحاً و لسانه فصيحاً و كلامه واضحاً و فكره صائباً. حتى لقد طلبه العلماء ليُناقشوه و ليتبادلوا معه الأسئلة الصعبة في أمور الدين و التفسير لحل ما تعذر منها ، فكان يشترك معهم و هم في عمر أجداده و هو الطفل المتكلم الموهوب ، و لم يعجز عن إدراك ما يطلبون أو يتساءلون ؛ فعُرف بالإمام و هو صغير، و عُرف بالعالم و هو الغلام ، و عُرف بالحكيم و هو الصبي . و اشتهر بين الناس بذكائه و علمه ، فأحبوه جميعاً و زاد من حبهم إياه سيرة أبيه التي لا تزال عالقة بذكرياتهم ؛ فهو عبد السلام بن سليم الذي احتلَّ مكانة أبيه و لم يبخلوا عليه بالتوقير و الاحترام و الحب و التقدير، فنعم الأب و نعم الابن .

و تَعلَّق عبد السلام بحب الله و محبة رسول الله ، و قضى أوقات فراغه في العبادة و الابتهال إلى الله ، و تطورت حالته فكان الولَه و كان العشق ، و كان التوحيد و كان القيام بالليل و الناس نيام ، و كان الصيام و كان الإحسان و صفت أوقاته فكان الصدق و الإخلاص و الشجاعة و المروءة . و عمه يفرح بإبن أخيه بل ابنه الحبيب ، و نظر إليه طويلاً ثم قال له :" يا عبد السلام إني أرى أن أذهب بك إلى ولي كامل لتتلقى عنه التلقين" . فقال له :" و هل أنا جاهل يا عمي! " قال:" لا ، بل لتثبيت علمك فلابد لك من ولي عالم كامل تتلقى عنه آداب الدين و التصوف و ليرشدك إلى طريق الله بما لم نتمكن نحن من دراسته معك . و بدأت رحلة السفر إلى الله ... [4]

.رابعاً : سلوكه طريق التصوف

لما بلغ عبد السلام مبلغ أهل العلم و رأى عمه أنه قد حان الوقت لكي يتتلمذ على يد شيخ من شيوخ التربية ليُنسب إليه و يأخذ عنه ؛ إذ أن ذلك واجب وجوباً مؤكداً ؛ لأن المريد و إن قرُب من المنازل و رأى مالا يمكن وصفه فلا يأمن رعونة نفسه و غواية الشيطان إلا بمعرفة شيخ ، فلابد له من الانتساب إلى من هو عارفٌ بالله فارغٌ من تأديب نفسه ، كما أن الإنسان إذا لم يُنتسب إلى شيخ قيل عنه أنه كالشجرة النابتة بنفسها لا يتم نتاجها.

و ما كان من عبد السلام إلا أن يستجيب لرغبة عمه و يسير معه إلى من أراد الله ظهوره على يده و هو الشيخ عبد الواحد الدوكالي ، الذي قد سبقت نباغة الأسمر و نجابته لديه قبل وصوله إليه ؛ و ذلك من قِبل صديقه و صديق أسرة عبد السلام الشيخ أحمد زروق الذي كان دائم التردد على أبناء وطنه _ الفواتير _ بصفة عامة ، و على الشيخ أحمد الفيتوري عمّ الأسمر و مربيه بصفة خاصة . و أثناء هذه الزيارات المتكررة لفت انتباهه شدة نبوغ الأسمر حتى دفعه ذلك أن يقول : سيكون لهذا الولد شأن عظيم بطرابلس إلى أن يفوق أهل عصره . فما كان بعد ذلك من الشيخ الدوكالي إلا أن يُرحب بعبد السلام و عمه الذي أجلسه بين يدي الشيخ و ذكر نسبه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم استودعه و انصرف .

مكث عبد السلام عند شيخه سبع سنين مُجداً في خدمته ليلاً و نهاراً ، لا يتفرغ إلا ساعة الدرس في علم التصوف فإن الشيخ يُريحه في تلك الساعة من كل خدمة . وله في إتباع أوامره وخدمته من غير تردد ولا تأويل عجائب لا يقدر عليها إلا من سبقت له العناية الربانية، و كمُل عنده الإخلاص و صدق النية والإتباع .

و تمضي الأيام ... ويشتد تعلق التلميذ بأستاذه حتى أصبح فراقه له أشبه ما يكون بفطاماً روحياً عجز معه عبد السلام عن إقناع شيخه الدوكالي بالبقاء عنده ؛ فقد رفض الشيخ ذلك مُعللاً بأن المكان لا يتحمل شيخين ساعة زمن بعد الآن ، قائلاً له :" يا عبد السلام ورثت مقامي . توكل على الله و اذهب لينتفع بك الناس فالشيخ ما يخدم شيخاً " فغادر عبد السلام أستاذه على كُره و مضض و سار في طريقه إلى أين يتجه و أن يقصد ؟! نظر إلى السماء و ترقرقت في عينيه الدموع و أخذ يناجي ربه بكلمات تعلوها نبرة حزن و أسى على

فراق شيخه ، و قال بلسان حاله : يا أنيس الجالسين . ليس لي غيرك أنيس ، يا أمان الخائفين . من الذي يُطمئنني على غيبي سواك ، و يا علام الغيوب ، و يا من تعلم أسرار عبادك و مخلوقاتك .... أنا عبدك يا ربي و ليس لي وجهة إلا إليك ، و ليس لي ملجأ ألجأ إليه و لا أعتمد عليه إلا الاعتماد عليك .

إلهي لقد خرجت من مكان أنت تملكه إلى مكان أنت تملكه فخرجت من ضيافتك إلى ضيافتك ، و منك إليك . فأنا مخلوق وأنت خالقي ، و أنا أعيش و أنت رازقي... ليس لي إله غيرك فأدعوه و لا رب كريم غيرك فأرجوه ، و ليس في الكون كله من يطلع على خبايا النفوس غيرك تُرفع إليه الشكوى و هو البصير بعباده ، المطلع على أسرار خلقه . قصدتك يا ربي و أنا على يقين من نصرك ، و اتجهت إليك و أنا مطمئن إلى حنانك و تأييدك و عطفك .... إلهي.. لقد تركت أستاذي الدوكالي و كنت قد تعلقت به و لكن هي الإرادة التي كتبتها فجعلت عبدك يمشي في البلاد قاصداً دعوتك راجياً نصرتك . فأسألك العصمة في حركاتي و سكناتي ، و كلماتي و إراداتي ، و احرسني بفضلك ، و احفظني بعنايتك و رعايتك و اكتب لي التوفيق و الطريق المستقيم إليك ....[5]

سار عبد السلام في طريقه يطوف على الأولياء و يطلب منهم الاستخدام ، فكان إذا استخدمه الواحد منهم مدة يسيرة و اطلع على علو مقامه امتنع عن تخديمه ، إلى أن بلغ ثمانين شيخاً من مشايخ التربية و كلهم امتنعوا منه لإطلاعهم على علو مقامه . و لم يولِّي عبد السلام وجهه شطر أهله و زويه فرحاً بإجازة شيخه له و بتلك المنزلة التي شهد له بها غيره من الشيوخ ؛ و ما ذلك إلا لصدق حاله مع ربه فكان ينظر دائماً لنفسه بعين التصغير و أنه لا زالت هناك أموراً لم يطلع عليها بعد .

و لا شك أن السياحة في الأرض تُعتبر وسيلة من وسائل التربية النفسية ؛ فهي مُجاهدة للنفس و قطعاً لمألوفاتها ، ومُغالبة لشهواتها و هذا و لا شك خليق بسموِّها و تهذيبها . و قد زار عبد السلام كل هؤلاء الأولياء لعلَّه بذلك ينال ذلك المقام الذي أشار إليه النبي(صلى الله عليه وسلم) في حديثه : " وجبت محبتي للمتحابين في ، و المتجالسين في ، و المتزاورين في "[6]، و مقتبساً في نفس الوقت من علومهم و آرائهم ، و ملتمساً دعائهم و بركاتهم ، و متأملاً في

أحوال المسلمين و ما هم عليه. و كانت نقطة النهاية في سياحته هذه جبل زغوان بتونس ، هذا الجبل الذي قيل عنه أنه مأوى الصالحين و خيار المسلمين ، عاد بعده أدراجه إلى بلده زليتن ، حتى كان ذلك اليوم الذي هو بمثابة نقطة تحول في سموه الروحي ..

ذلك اليوم قصد عبد السلام زيارة قبور أجداده أولاد سليمان السبعة ، فلما وصل وجد بإزاء قبورهم طائفة من المغاربة يضربون الدفوف و ينشدون أشعاراً منسوبة للشيخ "ممشاد الدينوري". فلما سمعهم تأثر بهم تأثيراً عميقاً ، و شعر برعدة شديدة و أخذه هذا الحال و هو لا يدري كيف تطور بهذه السرعة ، و شطح في حب الله ، فلم يتمالك نفسه و ظهرت عليه علامات لم يفهمها و لم يُدركها قبل ذلك .

و استمر على هذا حتى اشتد به الجذب و بكى ، و رآه المغاربة على حالته فازدادوا إنشاداً و ضرباً للدف و ذكراً لله . و سبحان الذي بيده أمر القلوب يُقلبها كيف يشاء فيُثبت هذا على حال و يسلب من آخر حال . فبالأمس كان عبد السلام لا يُحب الدفوف و لا أهلها و لا المجاذيب و لا قُربهم ، و كان يغسل الحُصر التي يجتمع عليها الفقراء و يُشدد في الإنكار عليهم ؛ فها هو اليوم يُصبح واحداً منهم قد ذاق مشربهم و ورد موردهم .

لما بلغ أمره شيخه الدوكالي تغيَّر من ذلك ثم قال: لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم يُضل من يشاء و يهدي من يشاء . ثم أمر بالإتيان به ، فأتوا به مكبلاً بالأغلال و وضعه في السجن و جعل عليه حراساً . و جاءت جماعة من أشراف القبائل و طلبوا منه إطلاقه من السجن و إعطاء الإذن له في ضرب البندير _ الدف _ فامتنع و قال : "من أعان إنساناً على معصية كان شريكاً له فيها ؛ لأن ضرب البندير معصية و ليس بقربة ، و الله لا يعبد بالشطح و لا بالردح و لا بالدفوف و لا بالكفوف".

و لما بلغ عبد السلام قول شيخه بأنه لا يُسوّغ ضرب البندير مطلقاً ؛ تغيَّر و بكى بكاءً شديداً و حمل الدف على ظهره و قصد الشيخ الأستاذ فتح الله أبا راس القيرواني (ت 391 هـ) . فلما وصل إليه جلس بين يديه و ذكر له ما وقع له مع شيخه الدوكالي ، فتوجها معاً إليه فوجداه يتوضأ للظهر فصليا معه الظهر جماعة . ثم قال الشيخ فتح الله: " ما بالك يا عبد الواحد مع تلميذك عبد السلام ! " فقال له : " عبد السلام ابتدع و ركبه الجنون و

رفض مذهب أهل السنة و طريقة الكتاب و السنة و خالف و اتبع طريق الزفافين أهل الدفوف و الكفوف و الشئ الذي لا يعني " . فسكت الشيخ فتح الله ساعة ثم قال: " يا عبد الواحد معذور من ذاق الشراب و لذائذه و معذور من لم يذقه . و أنت يا عبد السلام أرِنا دُفك و اضربه لنسمعه ". فما لبث أن أخرج عبد السلام دفه و أخذ ينشد بعضاً من أشعاره ؛ إذا بالشيخين قد أخذهما الجذب و الارتعاش وبقيا نحو الثلاث ساعات سكارى في حب الله . فلما أفاقا قال له الشيخ فتح الله :" ياعبد السلام قد صرح لك أهل السماوات و الأرض في ضرب البندير أنت و من تبعك ، و لا قلت هذا إلا بإذن من الله ورسوله " .

و لم يكن لجمال صوت عبد السلام وحده هذا الوجد الذي صار عليه الشيخين ؛ بل كانت الروحانية و الإخلاص و النور و النفحات الربانية التي تُسيطر على الموقف . فتجلت الأنوار ، و انكشفت الأسرار ، و تجلى الله على كل من كان في المجلس فصاروا في نوره متمتعين ، و في رحابه مُنعمين و في فضله قد جلسوا و أنسوا هذا الجو الجديد الذي سيطر عليهم جميعاً . فلما ذاقوا الشراب و شعروا بما يشعر به العشاق ؛ فرحوا و رحبوا بهذا الحال الذي صار عليه الأسمر . و منذ ذلك الوقت سلم له شيخه الدوكالي و اعترف بفضله و صار لا يقدر أن يصبر على فراقه . و كان (رضي الله عنه) إذا أنشد و ضرب يهتز كل من كان حوله من الناس .[7]

و قد روى لنا صوفينا في وصيته الكبرى أمره مع شيخه في ضرب الدف قائلاً " إخواني : و لا يحل لأحد منكم أن يتعمد سماع الباطل كالملاهي المحرمة فمنها الزكرة و نحوها ، و لا يجوز الرقص عليها من غير تواجد و لا حالة ؛ إلا البندير فإن أمره خفيف و قد أنكره شيخنا الدوكالي في أول بدايته و زجرني على شأنه ، و قد ضربني و ألقاني في السجن و أخرجني الإله سبحانه من السجن . و لم يسلمه لي الشيخ المذكور إلا بعد هول و مشقة ، و هو أمر مختلف فيه و لو لم يُسلمه لي لم أضربه و لم أقربه و لو أموت بالهيام و ما قدره الله علي ... و الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن "[8]

خامساً : شيوخه وتلاميذه

أ . شيوخه:

مما لا شك فيه أن بمعرفة شيوخ الرجل يُعرف قدره و يُتبين في طريق القوم حاله و أمره ، وأنه على قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها ؛ لأن الاصطلاحات في تعليم العلوم قد تختلط على المتعلم حتى أنه قد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ، و لا يدفع ذلك عنه إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فيُميز بذلك الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيُجرد العلم عنها و يعلم أنها أنحاء تعليم و طرق توصيل . و تنهض قواه إلى الرسوخ و الاستحكام في المكان و تصحيح معارفه و تميُزها عن سواها ، مع تقوية ملكته بالمباشرة و التلقين من الشيوخ عند تعددهم و تنوعهم .[9]

و قد تبين لنا مما سبق أن حياة الأسمر العلمية تنقسم إلى مرحلتين : الأولى منها قبل التحاقه بزاوية الدوكالي ، و قد أشارت المصادر إلى مشايخه في هذه المرحلة وهم :

1 . الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الفيتوري (عمه) .

2 . الشيخ علي بن عثمان الفيتوري (وهو الذي على يديه حفظ القرآن).

3 . الشيخ أحمد زروق البرنسي (ت 899 هـ).

4 . الشيخ عبد الرحمن الوسلاتي.

أما المرحلة الثانية فهي بعد التحاقه بزاوية الدوكالي ، و لم تُشر المصادر بتلمذته فيها سوى على شيخه عبد الواحد الدوكالي ، أما بعد مفارقته لأستاذه اتصل الأسمر بثمانين شيخاً و جميعهم أجازوه و اعترفوا بمقدرته العلمية و رسوخه ، و أن عليه أن ينتقل من طور التلمذة إلى طور الإرشاد و التوجيه . و من أبرز هؤلاء :

1. الشيخ عبد الله العبادي .

2 . الشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب الكبير _ تفرقة بينه و بين الحطاب الصغير ابنه (ت 945 هـ).

3 . الشيخ علي العوسجي (ت 925 هـ) .

4. الشيخ عبد النبي بن عبد المولى .

ب . تلاميذه :

لاشك أن صفات الأسمر الطيبة و خصائصه الجليلة ، و مقدرته الفائقة في الوعظ والإرشاد و أسلوبه في فن التدريس و الدعوة إلى الله ، كل هذا جعل الكثيرين يتبارون في التلمذة على يده و المكوث بجواره لينهلوا من علمه الوافر . فبعد أن اطمأن عبد السلام على وضعه الجديد مكتسباً رضا أستاذه الدوكالي و أستاذه القيرواني، وأنهم بعد أن رأوا صدق وجده مع الله تأكدوا أن عبد السلام يسير في طريق الله و أنه من أولياء الله الخالصين المخلصين . انطلق في ذكر الله و التف حوله الناس و المريدين ، و اجتمعوا في حلقات الذكر ليلاً ونهاراً و تكونت زاويته للعبادة و الذكر و حفظ القرآن و الحديث و الفقه و التوحيد .

و قد قسم الأسمر الدراسة في الزاوية إلى شريحتين ، أولهما : شريحة من كان في طور الدراسة و الطلب ؛ فإلى جانب تحفيظ القرآن لصغار السن ، انتظمت الحلقات الدراسية لكبارهم لتتناول مباحث العقيدة ، و التفسير و الحديث ، و الفقه و أصوله و علوم اللغة العربية و آدابها . أما ثانيهما : شريحة كبار السن و من فاته ركب التعليم بسبب مشاغل الحياة و مقتضيات المعيشة _ وهم الفئة الأكثر في المجتمع يومها _ فانتظمت بهم حلقات الوعظ و الإرشاد التي يقوم فيها الأسمر بتبسيط قواعد الشريعة و السلوك إلى عقولهم ، كما انتظمت بالزاوية حلقات الذكر الصوفي التي استعمل فيها الأسمر السماع الصوفي صحبة البندير . و من أبرز تلاميذه في هذه المرحلة :

1. الشيخ سالم السنهوري (ت 1015 هـ).
2. عمر بن محمد بن حمودة الطرابلسي المعروف بابن جحا (ت 998 هـ).
3. صالح بن مبارك الغيثي (ت 989 هـ).
4. أبو حميدة بن عبد الرحمن السقفي الشهير بالبعاج (ت 999 هـ).
5. علي بن محمد البشت (ت 997 هـ).
6. عبد الرحمن بن علي المكي (ت 998 هـ).
7. محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب الصغير (ت 954 هـ).

8 . كريم الدين البرموني صاحب كتاب (روضة الأزهار و منية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر). وغيرهم الكثير ممن صاحب الشيخ وتتلمذ على يده فانتفع ونفع وأفاض.

سادساً : وفاته

عاش عبد السلام الأسمر و قضى أيام حياته باحثاً عن الحقيقة ، حاملاً لواء العلم و القرآن و الدين و الحكمة ... و مضت الأيام و تجاوز عبد السلام المائة عام ، و جلس ينتظر الرفيق الأعلى الذي عاش كل حياته يتأهب إلى لقائه ، و يبحث عن الطريق الأمثل في الحياة الذي يؤهل له حسن هذا اللقاء . و اشتد المرض عليه فاعتكف في خلوته ثم جمع كل أحبابه و أصحابه و أولاده في مجلس رهيب . و مهما بلغت درجات الرضا و الإيمان ؛ فإن للسفر عبرة تجعل المرء عيي .

صارح الأسمر الجميع بأنه إنما يجلس معهم للتوصية في بعض الأمور التي تكون بعد وفاته ؛ حيث أتاه قولنج ــ مرض يصيب البطن ــ و كانت هذه هي الإشارة لانتهاء العمر . ثم دمعت عيناه و هو ينظر إليهم شخصاً شخصا ، و لما سمعوا منه هذه المفاجأة ؛ انتابهم كرب و همٌ و حزن . فأطرق منهم من أطرق و هم في ذهول المفاجأة ، و الصمت يغلب عليهم و كأنهم على وشك انفجار بالبكاء و النحيب .

تدارك الشيخ الموقف و اعتدل في فراشه ، ثم تربع و قال : " مرحباً بكم يا أصحابي و يا أحبابي و يا أولادي إن الرحيل مقبل و لا شك.. فأوصيكم بتقوى الله ، و أحسنوا إلى الحاضر و الغائب ، و أعطوا الحق لأصحابه ، و ارحموا الفقراء و المساكين ، و اجبروا خاطر المجذوبين و لا تقابلوهم بالإهانة و أحسنوا إليهم . و سوف أترك هذه الدنيا مسافراً إلى الله العظيم . و عند موتي يغسلني (سالم بن طاهر) و هو الذي يصلي علي ، أما (عمر بن جحا) فليصب علي الماء أثناء غسلي ."

ثم قال لهم : " تركت لكم (عمر بن جحا) فهو الخليفة فيكم بعدي ، و سيكون له مقام عظيم و هو باب من أبواب الله سبحانه و تعالى ، و شأنه كبير و علمه وفير ، و الله يتولاكم ما دمتم على عهده محافظين " . ثم أمرهم بالخروج ليختلي مع عمر بن جحا و أوصاه كثيراً و

خصه بأسراره ، و لقنه التلقين الكامل ، و دعا له بالبركة في كل حركاته و سكناته و جميع تصرفاته و أحواله .

ثم إنه (رضي الله عنه) طلب الماء فجاءوا به ، فشرب الماء ثم توضأ وضوءه للصلاة حتى ظن الجميع أنه شُفي ، و تكلم بوصايا كثيرة ثم أسند ظهره للحائط ، و جعل يقول بصوت جميل وجليل عليه وقار الصالحين أبياتاً ، أذكر منها :

شوري دعاني يا من يوادعني مريض وفاني يا من يسامحني

و فرقة إخواني بالمرض زادتني و وحشة أضناني زادت علي حزني

و قلبي شقاني يبكي على فقدي و القبض جاني و القبر حدثني

و أجلي أتاني و الموت زارتني و أمري تهول مولاي صبري

دمعي تهطل والشوق بكاني هذي المنية والعمر حُدد لي

و بعد أن انتهى (رضي الله عنه) من مقطوعته هذه ، اضطجع على جنبه الأيمن و جعل وجهه للقبلة ثم قال :" أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله" . و كرر الشهادة إلى أن اختاره الله إلى جواره و فاضت روحه الكريمة المؤمنة بعد صلاة العصر يوم الخميس في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم سنة (981 هـ) ، و بات مغسلاً في خلوته ، ثم دفن بعد صلاة الجمعة . و قد تولى غسله و الصلاة عليه سالم بن طاهر، و صب الماء على جسده عمر بن جحا وذلك حسب الوصية.

و قد خرج الناس جميعاً من زليتن و جميع البلاد المجاورة ، و من أنحاء ليبيا و طرابلس و الزاوية الغربية و قاموا بتشييع الجنازة . و شاهدوا الأنوار و الأسرار، كما شاهدوا طيوراً خضراً ترفرف حول النعش ، و رأوا من الكرامات ما جعلهم يتحدثون عنها و سمعوا أصواتاً و ضجة عظيمة بالتسبيح و التهليل و التكبير.

رحم الله الإمام العابد الزاهد المخلص المحب لله و رسوله ـ عبد السلام الأسمر .[10]

المبحث الثاني : مكانة الأسمر الصوفية

أولاً : طريقته العروسية الشاذلية وسنده فيها

تُنسب الطريقة العروسية التي ينتمي إليها الأسمر إلى الشيخ أحمد بن عروس (ت 869 هـ) . و هو من أكابر الصوفية أهل الحقائق ، و له مناقب كثيرة لا تحصى ، و قد جاء في هذه الطريقة بالعجب العجاب و لم يقدر عليه أحد من جانب الكشف و الإلهام و علوم الباطن كما وصفه الأسمر ، الذي ذكر في وصيته الكبرى أنه " لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة و العبادة لنالها سيدي أحمد بن عروس ." و قد سُئل ابن عروس (رضي الله عنه) عن طريقته لماذا سُميت بالعروسية فأجاب بأنه سمع عن السلف الصالح بأن العروسية بمعنى الصوفية ، و قد فسرها على ذلك أجلُّ أهل العلم و هو اسم شريف لتعظيم شأنها وعلو قدرها ؛ و ذلك لأنها طريق قويم و صراط مستقيم جمعت بين الشريعة و الحقيقة .

و العروسية هي لُبُّ الطريقة الشاذلية منها تنبع و إليها ترجع . و الطريقة الشاذلية تحتها طرق مرسية و ماضوية و وفائية و دهمانية و زروقية ، و المرسية هي العمدة و إليها ترجع العروسية . و الشاذلية تنسب إلى القطب الكبير الإمام (أبي الحسن الشاذلي) و هو رأس هذه الطريقة و مظهر لوائها ، أخذ عن شيخه الغوث القطب الكبير أبو محمد عبد السلام بن مشيش[11] ، و هو من أجلِّ مشايخه و على يديه كان فتحه و إليه يُنسب . و عن فضل طريقته الشاذلية يقول الشيخ أبي العباس المرسي (ت 685 هـ) : طريقتنا هذه التي هي الشاذلية لا تُنسب للمشارقة و لا المغاربة بل هي من واحد إلى واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم).

و قد أخذ الأسمر طريقته العروسية الشاذلية عن شيخه عبد الواحد بن محمد الدوكالي الذي أخذها عن شيخه فتح الله أبو راس الذي كان مفتياً بالقيروان، و الشيخ فتح الله أخذ الطريقة العروسية الشاذلية عن شيخه الكبير أحمد أبو تليس القيرواني المدفون في رياض جامع الزيتونة في تونس ، وهو قد أخذ هذه الطريقة أيضاً عروسية شاذلية عن شيخه أبو راوي الفحل ، و أما الشيخ أبو راوي أخذ الطريقة عن القطب الكبير أحمد بن عروس (رضي الله عنه) و لم تكن في زمانه و حال حياته إلا شاذلية فقط ، و يوم أن توفى الشيخ أحمد بن عروس حدثت بعض الكرامات الباهرة بأن تكلم عند الغسل وتكلم عند القبر؛ فأضيف اسمه على الشاذلية، وكان هذا الاسم أول ما أضيف على الطريقة حتى صارت الطريقة الشاذلية (العروسية الشاذلية).

و أما الشيخ أحمد بن عروس أخذ هذه الطريقة من أستاذه فتح الله العجمي (رضي الله عنه) ، و هو أخذ الطريقة من أستاذه ياقوت العرشي (رضي الله عنه) ، و هو عن شيخه أبي العباس المرسي ، و هو عن أستاذه الإمام الكبير و رأس رأسها و قائد جيشها السيد أبو الحسن الشاذلي قُدس سره ، و الإمام الشاذلي عن شيخه القطب الكبير أبو محمد عبد السلام بن أبي بكر بن رواح الشهير بابن مشيش (رضي الله عنه) ، و الشيخ ابن مشيش عن شيخه القطب سيدي عبد الرحمن المدني الزيات العطار ، و هو عن شيخه القطب تُقي الدين الفُقَيّر_ بالتصغير_ ، و هو عن القطب فخر الدين ، و هو عن القطب نور الدين ، و هو عن القطب تاج الدين ، و هو عن القطب شمس الدين التركي ، و هو عن القطب زين الدين القزويني ، و هو عن القطب إبراهيم البصري ن و هو عن القطب أحمد المرواني ، و هو عن القطب سعيد الصافي، وهو عن القطب فتح السعود ، و هو عن القطب سعد الغزواني ، و هو عن القطب سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري ، و هو عن أول أقطاب هذه الأمة و سيد شباب أهل الجنة سيدنا الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه و رضي عنه) ، و هو عن سيد الكونين و إمام المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ثم عن سيدنا جبريل (عليه السلام) و هو عن رب العزة (عز وجل) .[12]

ثانياً : مكانته في الدعوة إلى الله

بعد أن أسس الأسمر زاويته ، و التف حوله مريديه و تلاميذه ؛ أحدثت تلك الزاوية ردة فعل قاسية لدى كثير من العلماء الذين كانت لهم حلقات علمية بمساجد زليتن . فقد هجرهم طلابها مُلتحقين بحلقات الأسمر ، و أبى عليهم كبرياؤهم الانضمام إلى أسرة التدريس بزاوية الأسمر، فكان من الطبيعي أن يُناصبوا له العداء باحثين عن أي ثغرة ينفذون منها إلى ضرب الأسمر و زاويته . و وجدوا في استعمال الأسمر السماع لبعض مريديه ، و ذكره الله بالاسم المفرد المنفذ الذي من خلاله يُسددون سهامهم إليه ، فاتهموه بخرق الشريعة المحمدية و إتباع الهوى و الشيطان .

و لا عجب في ذلك فالإنكار سنة كونية ، و قد جرت العادة بتسليط الخلق على أولياء الله في كل عصر، و الروايات في ذلك كثيرة . فقد وصف الشيخ أبو الحسن الشاذلي (رضي الله

عنه) بعض المنكرين عليه من أهل زمانه بأنهم أهل جدال وتعنت . قلَّ أن يُصدق أحدهم بولي معين بل يقول : نعلم أن لله أولياء وأصفياء موجودين و لكن أين هم ؟! فلا يُذكر له أحداً بعينه إلا و يأخذ في الطعن فيه و يقول لتابعيه : فروا منه كما تفر الغنم من الذئب ، و يطلق لسانه بالاحتجاج بالأقوال الفاسدة و الأدلة الواهية على كونه غير ولي ؛ و ذلك من كثرة حسده و فساد سريرته و ذريعة النفاق في قلبه ، و قد غاب عنه أن الولي لا يَعرف صفاته إلا الولي . فمن أين لغير الولي نفي الولاية عن إنسان ! . و قد حذَّر الشاذلي من هؤلاء وأمر أتباعه أن يفروا منه فرارهم من الأسد الضاري .

و قد ظهرت تلك الفئة ذاتها حول الأسمر و نشروا أفكارهم المسمومة و اتهموه بالسحر و الجنون ، و وقفوا على مفترق الطرق ليمنعوا الناس من الذهاب إليه . و استمروا في إيذائه حتى فرَّ منهم إلى خارج زليتن سبع مرات و هو في أشد الحيرة ؛ كلما عاد إلى بلدته أخرجوه ، ثم أنه يئس من الإقامة معهم فرتب نفسه على الخروج نهائياً من زليتن أمام عناد أهل الظلم و الافتراء.

و في ظل هذه الظروف وهذا الجو المشحون بالتوتر؛ عرض أحد فضلاء المواجر على الأسمر أن يبتعد قليلاً عن زليتن و أن يقيم بينهم بالساحل حتى تهدأ الأمور و يقضي الله بعدها ما يشاء . واستجاب الأسمر لهذا العرض ، و انتقل معه إلى ساحل الأحامد ، و بدأ تلاميذه يتواردون عليه و لم يرُق هذا بطبيعة الحال لشيخ قبيلة الأحامد "همام" و لا لمفتيها "مبارك" ؛ لأنهما رأيا في وجود الأسمر القضاء على نفوذهما في القبيلة ، فأخذا جاهدَين في الكيد له و انتهى الأمر بمقتل أحد أبنائه بكل قسوة و وحشية .

أدرك الأسمر أن وجوده بالساحل أصبح مستحيلاً بعد مقتل ابنه و فلذة كبده (عبد الدائم) فغادره متوجها تلقاء طرابلس ، و اتخذ من مسجد الناقة _ و هو من مساجد طرابلس العتيقة و له مكانة خاصة في قلوب أهلها _ مُستقراً و منبراً لدعوته الإصلاحية . تلك الدعوة الإصلاحية التي هي من الأهمية بمكان في حياة الصوفي ، و التي هي عبارة عن تفعيل لحياته الروحية على أرض الواقع ؛ فالصوفي الذي هو باب من أبواب الوصول إلى الله ينبغي أن يكون

واعياً و مُلماً بما يحدث حوله من أحداث اجتماعية و سياسية و دينية و أخلاقية ، و أن يعمل جاهداً على إنقاذ مجتمعه من أي تردي يلحق بتلك الجوانب أو يؤدي إلى انهيارها.

و لقد كانت طرابلس في تلك الفترة تعيش ظاهرياً في ظل حكم أحد الشيوخ الذين جاءوا إلى سدة الحكم بعد انفصال طرابلس عن الدولة الحفصية سنة 866 هـ _ 1460 م ، بينما الحكم الفعلي يباشره كبار التجار و أصحاب رؤوس الأموال الذين لا همَّ لهم إلا جمع المال و الثراء . و قد بلغ من ثرائهم أن أحدهم ابتاع سفينتين مُحملتين بالبضائع وحده و دفع ثمنها فوراً ، و آخر استضاف أطقم هاتين السفينتين إلى مائدة فاخرة حيث أخذ لؤلؤة نفيسة و دقَّها دقاً ناعماً في مدق على مشهد من ضيوفه ، ثم ذرَّ مسحوقها على الطعام قائلاً : هذا مقام الفلفل .

و لقد كان هذا البذخ و الترف الذي تعيشه طرابلس غداة نزول الأسمر بها مدعاة للدعة و الانحراف ، أما ما يُشاع من أن "الأسبان" يعدوُّن العدة للاستيلاء على طرابلس، و أنهم أصبحوا منها قاب قوسين أو أدنى ، فهذا الأمر لا يعني شيوخ طرابلس و لا حُكامها الحقيقيين ؛ لذا سارع الأسمر إلى انتقاد هذا الوضع ، و أرسل صيحاته المدوّية في أرجاء جامع الناقة ، مُحذراً من هذا الوضع الذي تعيشه المدينة ، و مُبيناً المآل الذي ستصير إليه إن استمر هذا الوضع على حاله .

أقضَّت صيحات الأسمر مضاجع الذين يحكمون المدينة من خلف الستار، و رأوا فيها ما يُهدد كيانهم و يهدم مصالحهم ، فقرروا العمل بسرعة ضد الأسمر و دعوته قبل أن يستفحل الأمر و يتسع الخرق على الراقع . و سرعان ما حيكت المؤامرات و لُفِّقت التُهم التي جعلت من الأسمر في صورة الخارج عن الجماعة و الساعي إلى قلب نظام الحكم ، و انتهى الأمر بإصدار قرار من شيخ طرابلس يقضي بنفي الأسمر من طرابلس .

غادر الأسمر طرابلس منفياً عنها في ثلة من أصحابه الذين أبوا إلا مرافقته و السير معه ، و هو مدرك تماماً لمصيرها الذي ستؤول إليه حتماً نتيجة لهذا السرطان الذي ينخر فيها. و توجه إلى بلدة غريان و منها إلى وادي بني الوليد حيث انقطع فيه عن بني الإنسان في تلك الكتلة من الجبال التي تُعانق السماء و التي اصطُلح على تسميتها بقلعة "سوف لجين" حيث الهدوء و

السكينة . و قد حدثت لدى الأسمر في هذا المكان كرامات عديدة سوف يتم ذكرها بإذن الله في فصل الولاية عنده .

و مضت الأيام و الأسمر و أصحابه في هذه الخلوة البعيدة ، نهارهم في الدرس و التحصيل – و للدرس و التحصيل لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها كما يؤثر عن الإمام أبي حنيفة ــ و ليلهم في العبادة والمناجاة ، و لئن نُفي الأسمر من طرابلس ، فإن أفكاره و آراءه التي بثَّها لا يستطيع أحد أن ينفيها ، و صيحاته التي كان يُرسلها في جنبات جامع الناقة لا زالت تجلجل في آذان سامعيها ، و لم تغرب يوماً عن أفكارهم بل ظلت محور لقاءاتهم و ندواتهم . و أضحى كل من لم يره و يستمع إليه يتمنى رؤيته و لقاءه .

و هكذا اعتُبر الأسمر مسئولاً عن هذه الأفكار التي سرت في كثير من طبقات المجتمع سريان النار في الهشيم ، و استقر أمر السلطات الحاكمة على القضاء على الأسمر الذي أصبح رمزاً يتشدق به الكثيرين ، و جُردت لذلك حملة عسكرية يقودها الوالي نفسه و قاضيه ، و كبار رجال الدولة . و لكن أنَّى لهم ذلك ؛ فقد باءت محاولاتهم بالفشل و انتهى الأمر بإصدار الوالي أوامره للحملة بالتوقف و الرجوع ، و أرسل من لدنه رسولاً إلى الأسمر يبلغه تحياته ، و يعرض عليه أن يترك هذا المكان الموحش و يصطفي ما يشاء من المدن العامرة لمقره و سكناه ، و لقي هذا العرض قبولاً في نفس الأسمر و أصحابه و بدأت رحلة العودة.

كانت تاغوراء هي أول قرية ينزل بها الأسمر بعد هذه العزلة التي امتدت من الزمن ما يربو على العامين . و من تاغوراء إلى مصراته و منها إلى مسقط رأسه زليتن بعد غيبة عنها قاربت نصف العقد من الزمان ، و قد كانت تلك المدة الطويلة نسبياً ، كفيلة بتغيير ذلك الموقف العدائي الذي وقفت منه هذه المدينة يوم ابتدأ دعوته بها ، فها هي اليوم تحف لاستقباله بكل مظاهر المحبة و الاحترام .

ثالثاً : عباداته ومجاهداته

مما لا شك فيه أن المحيط البيئي و الأسري هما العاملان الأساسيان في تشكيل المعالم الأساسية في شخصية الإنسان . ثم تأتي بعد ذلك مؤثرات أخرى خارجية تتفاعل مع تلك العوامل الأساسية و تؤثر فيها سلباً أو إيجاباً . و إذا كان حفظ القرآن الكريم و إتقانه في سن صغيرة

هو أول تلك المؤثرات في حياة الأسمر ؛ فإن الإيمان واليقين ونور القرآن العظيم لابد و أن يغمرانه ويمكنانه من السير في طريق مستقيم طوال فترات حياته . و من ثم تُصبح جميع علوم الشرع و الدين و التوحيد و غيرها سهلةً مُيسرةً له ؛ لأن القرآن قد سبقها جميعاً ، بل يتدفق من عقله و فكره أضعاف ما يُحصله من علوم .

و لقد كانت عبادات الأسمر و مجاهداته امتداداً لتلك النشأة الصالحة ، و لم يكن العمل الإصلاحي الذي قدَّمه الأسمر تجاه مجتمعه بمنأى عن تلك العبادات فالعمل عبادة ؛ فقد كانت شخصيته (رضي الله عنه) تُمثل الشخصية الإسلامية المعتدلة التي ترى في نفسها أنها مأمورة بتعليم الناس ، و إرشادهم إلى طريق الحق والخير . و قد بذل في سبيل ذلك الكثير من الجهد و الوقت ، و ضحى بالغالي و النفيس .

و قد ذكرت المصادر جانباً من عبادات الأسمر العملية الظاهرة التي جعلها بمثابة ورده اليومي الدائم الذي لا ينقطع عنه أبداً . فقد كان لسانه (رضي الله عنه) لا يفتر عن ذكر ربه من قراءة للقرآن الكريم ، و بعد صلاة العشاء يصلي مائة ركعة نفلاً ، ثم يختم بورده عدد سبعين ألف مرة "لا إله إلا الله" ، و كان يذكر اسم الجلالة "الله" خمسمائة مرة ، ثم يقرأ بعدها أسماء الله الحسنى كل ليلة ، وبعد صلاة الصبح كان يقرأ وظيفة الشيخ أحمد زروق الشاذلي المسماة (بالوظيفة الزروقية) و هي أولى الوظائف الشاذلية ، و كان يقرأ جميع أحزاب الإمام أبي الحسن الشاذلي و يختم القرآن ثم يقرأ دلائل الخيرات ، و كان يقرأ "سبحان ربي العظيم وبحمده" ألف مرة ، ثم يقرأ أحزابه الأربعة : الحزب الكبير ، حزب الطمس ، حزب الخوف و حزب الفلاح . و كان يقرأ ما ذكر قبل أن يأتي وقت الضحى ، و بعد ذلك يُلقي درساً في التوحيد حتى وقت الظهر و بعد ذلك يقرأ جزءاً من مختصر الخليل و كذا جزءاً من الرسالة إلى أن يصير وقت العصر ، ثم يقرأ حِكم ابن عطاء الله السكندري إلى أن يجئ وقت صلاة المغرب ثم يقرأ من العلوم علم النحو و المعقول إلى وقت العشاء .

رابعاً : مؤلفاته

لقد تعرضت معظم مؤلفات الأسمر للضياع نتيجةً للتعدي على زاويته ونهب ما فيها من كتب وأوراق على يد الطاغين أمثال يحيي الزرهوني المشهور بيحيي الشقي– الذي ادعى أنه

المهدي المنتظر – و لهذا لم يبق منها إلا القليل النادر لا سيما وقد توالت على الوطن الليبي نكبات ونكسات من الحكم التركي إلى الاستعمار الإيطالي الذي ألجأ الناس إلى الهجرة ومغادرة بيوتهم وبلادهم والتشرد إلى الصحاري و البلدان الأخرى ؛ مما أدى إلى حرق كثير من المؤلفات والمخطوطات وتضييعها وهلاكها والقضاء عليها ، خاصةً وأن المستعمرون يعتبرون ذلك من أهم أسباب القطيعة والحيلولة بين الشعب الليبي العربي المسلم وتراثه و ماضيه المجيد .
وهذه مجموعة من أهم المؤلفات التي بقيت ولم تتناولها أيدي الظلم والطغيان :

1_ كتاب " الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية " ، وهو رسالة صغيرة للشيخ نفسه بيَّن فيها (رضي الله عنه) : سلسلة سنده في الطريقة ، كما بيَّن بعض النعم التي أنعم الله بها عليه ، وذكر بعض الأدعية التي كان يدعو بها وكيف نزل به الوارد وما حصل له من الأمور العظيمة . وقد أصطلح على تسميتها " العظمة في التحدث بالنعمة " . أو هي على الأحرى جزء من هذا الكتاب .

2_ الوصية الكبرى أو " نصيحة المريدين في سر الأولياء والصالحين " و هي مطبوعة و متداولة نسبياً و تشمل على توجيهات عظيمة حرياً بأن تُدَرَّس ؛ لما احتوته من تعاليم ومواعظ و أحكام مُجددة لما قبلها .

3_ الوصية الصغرى لمن أراد الدخول في طريقتنا من الفقراء . و هي على نمط الوصية الكبرى ، و قد ذكرها بكاملها صاحب مختصر البرموني (محمد بن محمد عمر مخلوف) .

4 _ الوصية الوسطى .

5 _ مجموعة من الرسائل الخاصة التي أرسلها الشيخ إلى أتباعه و مريديه في ربوع ليبيا و الدول الأخرى . و قد كان أسلوب الأسمر في رسائله سهل ميسور ، خالٍ من التعقيدات اللفظية و المحسنات البديعية المتكلفة ، بعيد عن السجع ، ملتزم _إلا فيما ندر _ بقواعد اللغة والإعراب . ورغم تنوع الرسائل وتفاوت عباراتها فإنها في أغلبها تلتزم نمطاً معيناً يمكن اعتباره سمة عامة في أكثر الرسائل ، والأسمر في رسائله لم يكن ملتزماً بما حدده القدماء لشكل الرسائل ومظهرها ، وإنما كان ذلك عنده وليد ظرفه وساعته .

أما عن قيمة هذه الرسائل العلمية فهي ولا شك تعتبر من المصادر التاريخية والاجتماعية والأدبية التي لا تقل درجة عن المصادر الأخرى ، بل تفوقها لأنها موقعة ومؤرخة ، ولا يمكن الشك في مدى صحتها .

6_ الأحزاب الأربعة : وقد ذكرها الشيخ في وصيته الكبرى وهي: الحزب الكبير . حزب الطمس . حزب الخوف . حزب الفلاح، وهي تفيض علوماً ومعارفاً وحكماً وأسراراً تدل على مكانة الشيخ (رضي الله عنه).

7_ رسالة مختصرة في العقيدة الإسلامية و أصولها .

8_ نصائح التقريب في حق الفقراء و النقيب .

9_ التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية .

10_ مجموعة من المقطوعات الشعرية و المنظومات التعليمية و الصوفية ، التي بلغت ما يقرب من أربعة آلاف قصيدة .

أما ما يُعتبر في عداد المفقود من مؤلفات الأسمر فيكفينا فيه ما كتبه مؤرخه الإمام البرموني ، مما يدل على أنه شئ كثير ولكنه ضاع مع الأسف الشديد . قال الشيخ البرموني (رحمه الله تعالى) في هذا الشأن ما نصه : فأول ما أَملى علينا التحفة القدسية في أول شهر محرم إحدى وسبعين وتسعمائة و قال : اسمها " التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية " قدس الله سره ، ثم النصيحة الكبرى و قال : اسمها " نصيحة المريدين في سر الأولياء والصالحين" ، و أملى علينا نصيحة أخرى تسمى الوسطى في عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة ، و أملى علينا أربع نصائح في عام أربعة وسبعين وتسعمائة و قال : هذه نصائح التقريب في حق الفقراء و النقيب و أملى علينا غير ذلك رسائل عديدة ينصح فيها للفقراء ، إلى غير ذلك.

خامساً : تتمة هامة

عن سبب استخدام الأسمر للبندير _ الدف _ في طريقته :

إن المطالع لكتابات أكابر علماء الظاهر و الباطن قديماً و حديثاً في مسألة السماع يجد اختلافاً كثيراً . و قد تباينت فيها الأقوال و كثُر فيها الأخذ و الرد حتى خصها كثير منهم

بالتصنيف ، و من أشهر هؤلاء العلامة أبي محمد بن قتيبة ، و أبي منصور البغدادي و أبي محمد بن حزم و غيرهم . و المشهور بين أهل العلم حرمة السماع و الآلات و يُعللون بأن ذلك من باب اللهو ، حتى لقد تسلل ذلك الرأي إلى العلماء في زماننا هذا ، جعلهم لا يستسيغون مطلقاً استخدام الآلات عند ذكر الله ... و لنا فيها وقفة من خلال موقف الأسمر منها ...

أفرد الغزالي في الإحياء للسماع صفحات طويلة ذكر فيها اختلاف العلماء في إباحة السماع و كشف الحق فيه ، ثم ختم ذلك ببيان آداب السماع و آثاره . و قد بيَّن أن السماع على درجات جعل آخرها سماع من أحب الله و عشقه و اشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى أي شئ إلا رآه فيه سبحانه ، لا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ؛ فالسماع في حقه مُهيج لشوقه و مُؤكد لعشقه ، و مُستخرج منه من المكاشفات و الملاطفات لا يعرفها إلا من ذاقها . و قد شبه من يُحرم استخدام الآلات في السماع كمن يُحرم أصوات الأطيار الحسنة و غيرها إذ لا فرق بين الحيوان و الجماد ، فالكل من زينة الله التي أخرج لعباده .[13]

وهذا بعينه ما أردت الوصول إليه و هو أنه لا ينبغي أن نُطلق الأحكام جزافاً أو أن نُنكر السماع بالآلات على الإطلاق ؛ فإن فيه أحوال و درجات ، و منه المباح و المندوب و المحرم أيضاً وهو سماع من غلبت عليهم شهواتهم و تكدرت بواطنهم و فسدت مقاصدهم فلا يُحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم و على قلوبهم من الصفات المذمومة سيَّما في زماننا هذا حيث تكدرت الأحوال و فسدت الأعمال إلا من رحم ربي ؛ أما ما يخُص تلك الطائفة التي نحن بصدد الحديث عنها فالسماع في حقهم مستحب سواءٌ كان بالآلات أو بدونها لصدق حالهم مع الله .

و إذا نظرنا ما في جعبة صوفينا في هذا الشأن وجدناه يُقر بأن السماع باستخدام الدف ليس من مطلوبات الشرع ، وأنه حين يستخدمه أو يُظهره فلا يكون ذلك إلا في محله مع أهله في أوقات معروفة على صفة معروفة . وقد تبين فيما سبق أنه كان (رضي الله عنه) في بادئ أمره لا يتعمد سماع الدف و لا غيره و لا يعرف إلا الكتاب والسنة حتى نزل به هذا الوارد

واشتد به الوجد فأُمر باستعمال الدف ليستريح من هيجان الحال و إحراق الوجد ، و كان إذا ضرب يسمع كل أنملة من أصابعه تذكر الله .[14]

و لا يحل ذلك لغير أهله ، فما يفعله اليوم المدَّعون ممن يخالفون به الشرع من استخدامهم الخاطئ للدف و ما يتبعه من الرقص و الاهتزاز الزائد عن الحد المطلوب ، فهو غير مقبول ؛ لأن الأحوال لا تورَّث ولا مما يصح فيها التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالاً جبرياً كما وقع للشيخ في ضرب الدف . فليس لغيره إتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقة المشروع .

فسبحان من أخرج من بين فرثٍ و دمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، و من بين الدفوف و المزامير أحوالاً سنيةً للمقربين ....

قائمة المصادر والمراجع

أ–مؤلفات الشيخ الأسمر

1_ الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964.

2_ سفينة البحور لقصائد الطريقة العروسية السلامية.

3_ الوصية الكبرى، الطبعة الأولى، منشورات دار النجاح، طرابلس، ليبيا، 1976.

ب– أهم المصادر

4- أبي حامد الغزالي (1996): إحياء علوم الدين تحقيق الشحات الطحان و عبد الله المنشاوي (القاهرة / مكتبة الإيمان . ج2 .الطبعة الأولى 434 .

5- أحمد زروق (1989): قواعد التصوف (القاهرة / مكتبة الكليات الأزهرية . الطبعة الثالثة.

6- إسحاق إبراهيم محمد المليجي (1969): على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، ليبيا.

7- الطيب بن عثمان المصراتي (1969): فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة عبد السلام الأسمر (ليبيا / ط الأولى .

8- مالك (د. ت): الموطأ كتاب الشعر عند معاذ بن جبل _ ج 2

9_محمد بن محمد بن عمر مخلوف (بدون تاريخ نشر): مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ عبد السلام الأسمر، تنقيح لكتاب البرموني (روضة الأزهار)، مكتبة زهران، القاهرة.

ج- المراجع والدراسات الحديثة

10- مصطفى عمران رابعة (2003): رسائل الأسمر إلى مريديه، دار المدار الإسلامي بيروت لبنان.

الهوامش

[1] انظر أحمد زروق قواعد التصوف (القاهرة / مكتبة الكليات الأزهرية. الطبعة الثالثة1989 م) صححه ونقحه محمد زهري النجار . والقاعدة نصها : " المعتبر النسب الديني فإن انضاف إليه الطيني كان مؤكداً له ولا يلحق رتبة صاحبه بحال "

[2] انظر عبدالسلام الأسمر الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية ص 6 : 10

[3] انظر محمد مخلوف مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم (القاهرة / مكتبة زهران. 1324 هـ) ص 66 : 76 ، وهو تنقيح لروضة الأزهار ومُنية السادات الأبرار الذي ألَّفه الشيخ كريم الدين البرموني .

[4] انظر إسحاق المليجي على هامش سيرة عبد السلام الأسمر (ليبيا. طرابلس/ مكتبة النجاح. ط1 1969م) ص 27 :40 ، وكذلك أحمد عبد الكريم النفحات الشاذلية والأسرار الأسمرية (القاهرة / مطبعة الفجر الجديد 1998 م)

[5] انظر إسحاق المليجي على هامش حياة عبد السلام الأسمر ص 48 : 50

[6] أخرجه مالك في الموطأ (كتاب الشعر عند معاذ بن جبل _ ج 2. د. ت) ص727

[7] انظر محمد مخلوف مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم ص 83 : 86 ، وكذلك اسحاق المليجي على هامش حياة عبد السلام الأسمر ص 78 : 84 .

[8] الأسمر الوصية الكبرى ص 19

[9] انظر ابن خلدون المقدمة (بغداد / مكتبة المثنى. ج1. من كتاب العبر وديوان الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ص541

[10] انظر محمد مخلوف مواهب الرحيم ص 208 : 213 ، وكذلك إسحاق المليجي على هامش حياة عبد السلام الأسمر ص 277 : 281

[11] هو الجد السادس للشيخ عبد السلام الأسمر في نسبه لجهة أمه كما سبق أن ذكرت .

[12] انظر عبدالسلام الأسمر الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية ص 6 : 10، ذكر فيهم طريقتين للشاذلي :طريقة إرادة وهي التي تم ذكر سندها ، وطريقة تبرك وذكرها بسند آخر . وذكر أيضاً ثلاث طرق للشيخ أحمد بن عروس.

[13] انظر أبي حامد الغزالي إحياء علوم الدين تحقيق الشحات الطحان و عبد الله المنشاوي (القاهرة / مكتبة الإيمان. ج2 الطبعة الأولى. 1996 م) ص 382 : 434

[14] دل ذلك على الصوت الخفيف حيث أنه كان (رضي الله عنه) يضرب بأنامله وليس كما يحدث اليوم من الضرب بأصوات تقرع الأسماع فتكاد تُصَم منها .